غرام الكبار

obeikan.com

obeikan.com

لم يمنعه الصمم من عشق مي زيادة ..

ولم تمنعه المسافة الطويلة من طنطا للقاهرة من صالون مي فكان يعتمر إليها كل ثلاثاء ولم يتخلف يوماً عن الندوة !!

وكله في غرام مي يهون !!

إنه الحب الرائع والعشق الأبدي من عبقري كبير بحجم الشيخ مصطفى صادق الرافعي لمي زيادة وهو علامة مضيئة في تاريخ الأدب ولحظة فارقة في عُمر الفِكر ومفردات متوهجة في حرفة العربية ..

فمَنْ هو هذا العاشق الرائع ؟

هو .. رائدٌ للأدب العربي في الثلاثين عاماً الأولى من هذا القرن وهو من عظماء الكُتاب الذين خلفوا ورائهم روائع من الأدب العربي وكانت أعماله عاملاً رئيسياً في تطور النثر الحديث وكتابة المقال.

وُلد مصطفى صادق الرافعي في يناير عام ١٨٨٠ من أبوين لبنانيين هاجروا إلى سوريا ثم إلى مصر في قرية بهتيم بمحافظة القليوبية وينتهي نسبه إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب.

أتم حفظ القرآن الكريم بمساعدة والده قبل بلوغه العاشرة من عمره انتسب إلى مدرسة دمنهور الابتدائية ثم انتقل إلى مدرسة المنصورة الأميرية التي حصل منها على الشهادة الابتدائية وعمره آنذاك سبع عشرة سنة .

وأصله من مدينة طرابلس في لبنان ومازالت أسرة الرافعى موجودة فيها حتى الآن أما الفرع الذى جاء إلى مصر من اسرة الرافعى فإن الذى اسسه هو الشيخ محمد الطاهر الرافعى الذى وفد إلى مصر سنة ١٨٢٧ ليتولى قضاء المذهب الحنفي أى مذهب أبي حنيفة النعمان بأمر من السلطان العثمانى حيث كانت مصر حتى ذلك

الحين ولاية عثمانية .

وكان العمل الرئيسى لرجال أسرة الرافعى هو القضاء الشرعى حتى وصل الامر إلى الحد الذى اجتمع فيه من آل الرافعى أربعون قاضيا في مختلف المحاكم الشرعية المصرية في وقت واحد وأوشكت وظائف القضاء والفتوى ان تكون مقصورة على آل الرافعى وقد تنبه اللورد كرومر إلى هذه الملاحظة فأثبتها في بعض تقاريره إلى وزارة الخارجية الإنجليزية لأنها كانت ظاهرة ملفتة للنظر وتحتاج إلى تفكير وتأمل .

كان والد الرافعى هو الشيخ عبد الرازق الرافعى الذى تولى منصب القضاء الشرعى في كثير من أقاليم مصر وكان آخر عمل له هو رئاسة محكمة طنطا الشرعية . أما والدة الرافعى فكانت سورية الاصل كأبيه وكان أبوها الشيخ الطوخى وهو تاجر تسير قوافله بالتجارة بين مصر والشام وأصله من حلب وكانت إقامته في بهتيم من قرى محافظة القليوبية وكان له فيها ضيعة .

وآثرت أمه أن تكون ولادته في بيت أبيها. دخل الرافعى المدرسة الابتدائية ونال شهادتها ثم أصيب بمرض يقال انه التيفود اقعده عدة شهور في سريره وخرج من هذا المرض مصابا في أذنيه وظل المرض يزيد عليه عاما بعد عام حتى وصل إلى الثلاثين من عمره وقد فقد سمعه بصورة نهائية. ولم يحصل الرافعى في تعليمه النظامى على أكثر من الشهادة الابتدائية. معنى ذلك أن الرافعى كان مثل العقاد في تعليمه فكلاهما لم يحصل على شهادة غير الشهادة الابتدائية. كذلك كان الرافعى مثل طه حسين صاحب عاهة دائمة هي فقدان البصر عند طه حسين وفقدان السمع عند الرافعى ومع ذلك فقد كان الرافعى مثل زميليه العقاد وطه حسين من أصحاب الإرادة الحازمة القوية فلم يعبأ بالعقبات التي وضعتها الحياة في طريقه

وانما اشتد عزمه وأخذ نفسه بالجد والاجتهاد وعلم نفسه بنفسه حتى استطاع ان يكتسب ثقافة رفيعة وضعته في الصف الأول من أدباء عصره ومفكريه .

تزوج الرافعي في الرابعة والعشرين من أخت صديقه الأديب الأستاذ عبدالرحمن البرقوقي صاحب مجلة البيان وصاحب أفضل شرح لديوان المتنبي وأنجب الرافعي من زواجه عشرة أبناء. اضطره المرض إلى ترك التعليم الرسمي واستعاض عنه بمكتبة أبيه الزاخرة إذ عكف عليها حتى استوعبها وأحاط بما فيها. عمل في عام ١٨٩٩ ككاتب محكمة في محكمة طلخا ثم انتقل إلى محكمة طنطا الشرعية ثم إلى المحكمة الأهلية وبقي فيها حتى لقي وجه ربه الكريم

في يوم الاثنين العاشر من مايو لعام ١٩٣٧ استيقظ فيلسوف القرآن لصلاة الفجر ثم جلس يتلو القرآن فشعر بحرقة في معدته تناول لها دواء ثم عاد إلى مصلاه ومضت ساعة ثم نهض وسار فلما كان بالبهو سقط على الأرض ولما هب له أهل الدار وجدوه قد فاضت روحه الطيبة إلى بارئها وحمل جثمانه ودفن بعد صلاة الظهر إلى جوار أبويه في مقبرة العائلة في طنطا.

ونظراً لموهبته الرفيعة فقد كتب الرافعي الشعر منذ سن مراهقته فتبع الاتجاه المحافظ الذي قاده الشاعر العظيم البارودي حيث أصدر ديوانه الأول عام ١٩٠٣ قبل بلوغه العشرين من عمره والذي كان له صدى عظيماً بين كبار شعراء مصر وأعجب بشعره البارودي وحافظ إبراهيم.

ظهرت موهبة الرافعي في ثلاث اتجاهات رئيسية:

النثر الشعري: وكتب فيه أعمالاً رائعة مثل «حديث القمر» و «أوراق وزهرة» و«السحابة الحمراء» و«الفقير» وفى هذه الأعمال ظهرت رغبته في استعمال الشعر المقفى والشعر الحر.

الدراسات الأدبية: وكان أهم كتاب له في هذا الاتجاه هو «تاريخ اللغة العربية» ومهد هذا الكتاب غير المسبوق الطريق أمام الرافعي ليعلو درجات المجتمع الأدبي.

المقال: كانت عبقرية الرافعي واضحة في مجال كتابة المقال وفى سنواته الأخيرة كرس حياته لكتابة المقال فكتب كثير من المقالات القيمة والتي تم جمعها في كتابه المشهور «وحى القلم».

في عام ١٩١٢ رحل إلى لبنان حيث ألف كتابه حديث القمر وصف فيه مشاعر الشباب وعواطفهم وخواطر العشاق في أسلوب رمزي على ضرب من النثر الشعري البارع. وبعد وقوع الحرب العالمية الأولى نظر الرافعي حوله فرأى بؤساً متعدد الألوان مختلف الصور والأشكال فانعكس ذلك كله في كتابه «كتاب المساكين» وفي عام ١٩٢٤ أخرج كتاب «رسائل الأحزان» عن خواطر في الحب ثم أتبعه بكتاب و«السحاب الأحمر» والذي تحدث فيه عن فلسفة البُغض وطيش الحب تلي ذلك كتابه «أوراق الورد».. أسمعنا فيه حنين العاشق المهجور ومنية المتمني وذكريات السالي وفن الأديب وشعر الشاعر.

وجد الرافعي دعوة التجديد قناعاً للنيل من اللغة العربية يقصد منه الطعن في القرآن الكريم والتشكيك في إعجازه لذا ما أنفتأ يقاوم هذه الدعوة جهاداً تحت راية القرآن فجمع في كتابه «تحت راية القرآن» كل ما كتب عن المعارك التي دارت بين القديم وكل ما هو جديد ما جعله أفضل الكتب العربية في النقد ومكافحة الرأي بالرأي ما جعله أعلى كتبه مكانة بعد رائعته «وحي القلم».

في عام ١٩٣٤ بدأ الرافعي يكتب كل أسبوع مقالة أو قصة ليتم نشرها أسبوعياً في مجلة الرسالة والتي أجمع الأدباء والنقاد على أن ما نشرته الرسالة لهو أبدع ما كتب في الأدب العربي الحديث والقديم جمع أكثرها في كتاب وحي القلم.

على أن الرافعى لم يستمر طويلا في ميدان الشعر فقد انصرف عن الشعر إلى الكتابة النثرية وعندما نتوقف أمام ظاهرة انصرافه عن الشعر نجد انه كان على حق في هذا الموقف فرغم ما انجزه في هذا الميدان الادبى من نجاح ورغم أنَّه استطاع أن يلفت الانظار إلا أنَّه في الواقع لم يكن يستطيع أنْ يتجاوز المكانة التي وصل إليها الشعراء الكبار في عصره و خاصة أحمد شوقي وحافظ إبراهيم فقد أعطى هذا الشاعران التعبير عن مشاعر الناس وهمومهم في هذا الجيل .

تميز شعر حافظ إبراهيم وأحمد شوقي بالسهولة والغزارة مما اتاح لهما القدرة على الانتشار بين القراء حتى لو كان هولاء القراء متوسطين في ثقافتهم فأين يذهب الرافعى في هذه المعركة الكبيرة وشعره لم يكن شعرًا سهلًا بل كان شعرا صعبا يحتاج إلى ثقافة ادبية ولغوية عالية لكى يفهمه من يقرأه ولكى يتذوقه بعد ذلك ويستمتع به .

لعل الرافعى هو من اطلق أول صرخة اعتراض على الشعر العربى التقليدى في أدبنا فقد كان يقول: «إنّ في الشعر العربى قيودا لا تتيح للشاعر أنْ ينظم بالشعر كل ما يريد ان يعبر به عن نفسه» وهذه القيود بالفعل هي الوزن والقافية

كانت وقفة الرافعى ضد قيود الشعر التقليدية اخطر وأول وقفة عرفها الأدب العربى في تاريخه الطويل واهمية هذه الوقفة أنَّها كانت حوالي سنة ١٩١٠ أى في أوائل هذا القرن وقبل ظهور معظم الدعوات الادبية الأخرى التي دعت إلى تحرير الشعر العربى جزئيا أو كليا من الوزن والقافية

الميدان الأول الذى انتقل إليه الرافعى الذى كان مقيدا بالوزن والقافية هو ميدان النثر الشعرى الحر في التعبير عن عواطفه العتيقة التي كانت تملأ قلبه ولا يتعداها إلى تصرفات تخرج به عن حدود الالتزام الاخلاقى والدينى كما كان يتصوره

- أما الميدان الثانى الذى خرج إليه الرافعى فهو ميدان الدراسات الادبية وأهمها

كان كتابه عن «تاريخ أداب اللغة العربية» وهو كتاب بالغ القيمة ولعله كان أول كتب في موضوعه يظهر في العصر الحديث لانه ظهر في اوائل القرن العشرين وبالتحديد سنة ١٩١١. ثم كتب الرافعى بعد ذلك كتابه المشهور «تحت راية القرآن» وفيه يتحدث عن اعجاز القرآن. و يرد على آراء الدكتور طه حسين في كتابه المعروف باسم «في الشعر الجاهلى»

- ثم يأتى الميدان الأخير الذى تجلت فيه عبقرية الرافعى ووصل فيه إلى مكانته العالية في الأدب العربى المعاصر والقديم وهو مجال المقال والذى اخلص له الرافعى في الجزء الأخير من حياته وأبدع فيه إبداعا عجيبا وهذه المقالات التي جمعها الرافعى في كتابه «وحى القلم»

■ ■ ■

obeikan.com

الرافعي ومي زيادة

عاش الكاتب الكبير مصطفى صادق الرافعي قصة حب كبيرة مع مي زيادة لكنها كانت قصة حب من طرف واحد هو مصطفى الرافعي !

فقد احترق الرافعي حباً وهياماً بمي وتوهم أن ميا تحبه وهو مالم يكن صحيحاً.

ولكن هذا الحب الكبير أنتج كذلك أدباً غزيراً وجميلاً فكتب الرافعي لـ مي مجموعة كبيرة من الرسائل تشكل وثائق أدبية وشخصية هامة حول حياة كل منهما .

ورغم أن الرافعي كان يفهم شخصية مي جيداً وقال ذات يوم في وصفها :

إن كل من حادثها ظن أنها تحبه وما بها إلا أنها تفتنه.

وكانت مي تراسل الرافعي كما كانت تفعل مع معظم أدباء صالونها المقربين ولكن رسالة من رسائلها كانت توحي بشيء خاص بينهما قالت فيها :

أتذكر إذ التقينا وليس بنا شابكة فجلسنا مع الجالسين لم نقل شيئاً في أساليب الحديث غير أننا قلنا ما شئنا بالإسلوب الخاص باثنين فيما بين قلبيهما ! وشعرنا أول اللقاء بما لا يكون مثله إلا في التلاقي بعد فراق طويل كأن في كلينا قلباً ينتظر قلباً من زمن بعيد .. ولم تكد العين تكتحل بالعين حتى أخذت كلتاهما أسلحتها . وقلت لي بعينيك .. أنا .. وقلت لك بعيني : وأنا .. وتكاشفنا بأن تكاتمنا وتعارفنا بأحزاننا كأن كلينا شكوى تهم أن تفيض ببثها .. وجذبتني سحنتك الفكرية النبيلة التي تصنع الحزن في نفس من يراها .. فإذا هو إعجاب ، فإذا هو إكبار ، فإذا هو حب .

وهذه الرسالة شكك بعض النقاد في أن مي زيادة أرسلتها فعلاً إلى الرافعي .. بل قالوا إنه هو الذي تلبس أسلوب مي وكتب الرسالة إلى نفسه !

وعن مي كتب الرافعي ثلاثة كتب من أروع ما كتب هي : « رسائل الأحزان » .. « أوراق الورد » .. و « السحاب الأحمر » .

وكان الرافعي يعيش – الذي يكبر مي بأكثر من ثلاثين عاماً – في طنطا مع زوجته وأولاده العشرة وكان يحضر صالون الثلاثاء الأسبوعي في بيت مي قبل الجميع وهو في كامل أناقته وكانت مي تستقبله بحفاوة واحترام وتوليه عناية خاصة ولكن رغم كل ذلك لم يكن هو الحبيب الذي ملك قلبها .

إنتاجه الأدبي :

– «تاريخ آداب العرب» (ثلاثة أجزاء) صدرت طبعته الأولى في جزأين عام ١٣٢٩هـ١٩١١م.

وصدر الجزء الثالث بعد وفاته بتحقيق محمد سعيد العريان وذلك عام ١٣٥٩هـ الموافق لعام ١٩٤٠م.

– «إعجاز القرآن والبلاغة النبوية» (وهو الجزء الثاني من كتابه تاريخ آداب العرب) وقد صدرت طبعته الأولى باسم إعجاز القرآن والبلاغة النبوية عام ١٩٢٨م :

– «المساكين» صدرت طبعته الأولى عام ١٩١٧م.

– «السحاب الأحمر» .

– «حديث القمر».

– « رسائل الرافعي » وهي مجموعة رسائل خاصة كان يبعث بها إلى محمود أبي رية وقد اشتملت على كثير من آرائه في الأدب والسياسة ورجالها.

– « تحت راية القرآن » مقالات الأدب العربي في الجامعة والرد على كتاب في الشعر الجاهلي لطه حسين.

- «على السفود» وهو رد على عباس محمود العقاد

- «وحي القلم» (ثلاثة أجزاء) وهو مجموعة فصول ومقالات وقصص كتب المؤلف أكثره لمجلة الرسالة القاهرية بين عامي ١٩٣٤ - ١٩٣٧م

- «أوراق الورد»

- «رسائل الأحزان»

- «ديوان الرافعي» (ثلاثة أجزاء) صدرت طبعته الأولى عام ١٩٠٠م

- «ديوان النظرات» (شعر) صدرت طبعته الأولى عام ١٩٠٨م

يذكر انه الف النشيد الرسمي التونسي الذي لا يزال معمولا به إلى يومنا هذا وهو النشيد المعروف بحماة الحمى .

وفاته :

توفى رائد الأدب العربي مصطفى صادق الرافعي في ١٠ مايو ١٩٣٧ حيث دُفن إلى جوار أبويه في مقبرة العائلة في طنطا عن عمر يناهز ٥٧ عاماً .

■ ■ ■

obeikan.com